الفكاهة

وجذورها في الأدب العربي

لمحمد عبد الغني حسن

جرت العادة عند المترجمين اليوم ان يضعوا كلة الفكاهة في مقابل كلة Humour وكلة نكتة أو بديهة في مقابل كلة Wit . وهو وضع قصدوا به الى التفريق بين معنى الكلمتين الانكليزيتين اللتين أصبحتا سمة يتسم بها الأدب الانكليزي والطبع الانكليزي في مختلف عصوره . وقولنا ان الفكاهة والبديهة من سمات الطبع الانكليزي هو حقيقة نقصد بها ان ننفي ما علق بالاذهان من برود الطبع الانكليزي وميله الى العبوس والصرامة والتزمت . والحق ان الانكليز بعيدون من ذلك كله . فالدارس لأدبهم يعرض ألوانا شتى من روح الفكاهة الشائعة فيهم ، والتي تسودهم في أحرج الساعات وأشد الملمات فتحيل الجو العابس الكئيب الى جوّ مرح يسعف الطبع الكدود وتدهن المضنى

وكلة « الفكاهة » العربية تمت الى الضحك وحسن الحديث بصلات ، وتقابلها في اللسان العربي «الفكيهة» كما جاء في القاموس المحيط وغيره ، وبالفكيهة يسمي العرب بناتهم . وفكّه الرجل القوم بصُلح الكلام أطرفهم بها ، والرجل الفكه الذي يصنع الفكاهة ، والفاكه الطيب النفس الضحوك او الذي يضحك القوم بحديثه كالفكه . والفاكهة والتفاكه المازحة والتمازح[1] وكلة Humour الانكليزية تمت الى الضحك بسبب كذلك . وهي مشتقة من أصل لاتيني معناه افراز غددي كان يعتقد ان له سبباً في اثارة الأمزجة المختلفة للجسم . وفي طب العصور الوسطى كانت تشمل كلة Humours دلالة على زيادة عصارة من العصارات الأربع التي يفرزها الجسم وأثر تلك الزيادة في أخلاق الشخص العامة . على ان هذا الفهم لكلمة Humour أخذ يتغير تدريجيًّا وخاصة عند ما ظهر «بن جونسون» الانكليزي في القرن السابع عشر وحدد الكلمة تحديداً ساعد على حسن استعمالها والموازنة بينها وبين كلة Wit[2]

(١) القاموس المحيط مادة «فكه» (٢) دائرة معارف الدانبي اكبرس مادة Humour

والاستاذ مرغوليوث المستشرق المعروف بحث في الفكاهة عنوانه : Wit and Humour in Arabic Authors نشر في مجلة Islamic Culture أي « الثقافة الاسلامية » وهي تظهر في لاهور باللغة الانكليزية . وقد بدأ البحث بالتنبيه على صعوبة تعريف الظاهرتين او ترجمتهما ، واستحسن تعريف « ماكرلي » « للكلمة Wit » وقال ان اللغة العربية غنية بمفاتها ودقتها لا تجد فيها عبارة تنقل معنى هذا التعريف . وقد ردّ هذا الرأي في سطور قليلة الاستاذ محمد خلف الله بكلية الآداب [٣]

ولقد وجدت في دوائر المعارف الانكليزية فرقاً واضحاً بين الفكاهة والبديهة او بين كلمة Humour وكلمة Wit . فالرجل الفكه أو الفكاهي يكون هو نفسه موضوعاً للفكاهة ، أو يشترك مع آخرين ليكوّن الجميع موضوعاً فكاهيًّا لديذاً ، أما الرجل ذو البديهة والنادرة فانه يستخرج من بعض الامور أمراً مضحكاً على أن لا يكون هو ذاته موضوعاً للضحك

وعلى ضوء هذه التفرقة نستطيع أن نمضي قدماً في دراسة بعض الشخصيات الفكهة أو الشخصيات ذوات البديهة الحاضرة في الأدب العربي

***

الفكاهة والبديهة في الامة مقياس تقاس به نظرتها الى الأشياء واضطلاعها بالاعباء . وقد عدّها مؤلف كتاب « العبقرية الانكليزية » بعض الميادين التي تتجلى فيها اخلاق الانكليز ومزاجهم وسر كيانهم [٤] . ومن الغريب أن الفكاهة والمزاح والنادرة عند الانكليز لم تخرجهم عن جدّ عرف بهم وشُهر عنهم . فهم اذا جدَّ الجد واشتد الأمر يحتاجون الى « النكتة » اللطيفة يروّحون بها عن نفوسهم . وتراهم لا يسرفون في النكتة ولا يتمادون في الفكاهة ولا يُلحفون في طلب المزاح مخافة أن يخرجهم الالحاف والاسراف عن حد الجدّ فتنقلب الآية وينعكس الوضع

وقد يعدم الشخص الفكاهة في نفسه أو يفقد البديهة في ذاته فيلتمسها عند غيره ويدفع في سبيل ذلك الأموال ، ويغدق العطاء او يمنح الصلات كما كان يفعل الخلفاء والأمراء

ومن العجب أن الواحد من هؤلاء الخلفاء لا تراه يضن بالمال ينفقه على مضحكيه ومسجّانيه وقد يبخل بالمال القليل على مشروع ينفع بلده أو نعمة تعود على رعيته ، ولكنه لا يبالي بالألوف تخرج لأصحاب الساخر والمضاحك

ولقد اشتهر من هؤلاء المضحكين « أشعب » في عهد بني أمية ، والخليع الدمشقي في

(٣) من مقال في مجلة الثقافة عدد ١٣٧ ص ١٨ (٤) مجلة الثقافة العدد الثامن ص ٧

في أيام الرشيد ، وأبو الدبر في زمن المتوكل وكان بعض الخلفاء اذا استجلب الطرب سموا هؤلاء المضحكين ما لا يطاق من ألوان العذاب (٥)

وقد لوحظ أن أكثر الناس فكاهة هم أكثرهم على الحياة صبراً وأحفلهم في الحياة عمراً ؛ لأنهم يطاردون الهم بنوادره الصحيح ، والهم — وقاك الله — يحترم الاعمار ويشيب الولدان :

والهم يحترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

***

على ان الاغراق في الفكاهة والاسراف في الضحك يصرف المرء عن الجد الى الهزل ويرمي به الى ميادين اللهو والتبذل وينقده الاحساس الكريم بمواضع الكرم في الحياة فيموت قلبه وقد يقصر عمره . وقد علل المرحوم «جورجي زيدان» موت كثير من خلفاء العباسيين قبل سن الكهولة بافراطهم وتبسطهم في العيش وتمتعهم بالملذات (٦)

ومن هنا كانت الحكمة في الحديث الشريف « اياكم وكثرة الضحك فانها تميت القلب» وكانت الحكمة في قول عمر بن الخطاب « من كثر ضحكه قلّت هيبته (٧) » وكانت الحكمة في قول أكثم «المزاحة تذهب المهابة» (٨)

وقد عدّ « النويري » صاحب « كتاب نهاية الارب في فنون الادب » لايراده كثيراً من الفكاهات والنوادر والملح في كتابه بقوله (... فيه راحة للنفوس اذا تعبت وكلت ، ونشاط للخواطر اذا سئمت وملت . لان النفوس لا تستطيع ملازمة الاعمال ، بل تراح الى تنقل الاحوال ، فاذا عاهدتها بالنوادر في بعض الاحيان ولاطفتها بالفكاهات في أحد الأزمان عادت الى العمل الجد بنشاط جديدة ، وراحة في طلب العلوم مديدة) (٩) . وهذا مأخوذ من قول النبي عليه السلام «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فان القلوب اذا كلّت عميت »

والفكاهة في الادب العربي قديمة ، لأن طبيعة النفس البشرية الارتياح الى كل ما يشيع فيها السرور والضحك . والفكاهة غالباً تقترن بضحك منيرها حتى يبعث بذلك الضحك في سامعيه ومن هنا مدح العرب القدماء الرجل بقولهم هو « ضحوك السن بسّام الثنيات »(١٠) وذموه بقولهم « عبوس الوجه ، جهم المحيّا » . وفي هذا الكلام نظر . فقد يكون في مظهر الرجل ما يدل على الشدة ويتبرأ بالصرامة فاذا تفكّه أشاع في سامعيه سروراً كثيراً

والبرهان على ذلك حاضر وان لم يكن آتياً من الأدب العربي ، ولكنه يأتي مع الطبع

(٥) تاريخ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان ج ٣ ص ١٤٥ (٦) نفس المصدر والجزء والصفحة (٧) عيون الاخبار ج ١ ص ٣١٩ (٨) نفس المصدر (٩) نهاية الارب ج ٤ ص ١ (١٠) العقد الفريد ونهاية الارب

البشري فالدكتور فريد جروح رئيس الوزارة والخطيب الانكليزي المشهور عرف بسرعة البديهة وحضر الفكاهة على زمت في مظهره ، وصلابة في وجهه . فقد رووا عنه النكات ، وحفظوا عنه الردود والاجوبة المسكتة التي تتصل بهذا الموضوع وندخل في هذا الفصل . ولا بأس بالاستطراد بذكر بعض « بدائهه » . فقد زعموا أنهُ خطب مرة عن الحكم الداخلي بارلندة (Home Rule) فقال انا سنعطي الحكم الداخلي لارلندة ، وسنعطيه لاسكتلندا وسنعطيه لويلز ، وسنعطيه لـ ... ووقف متلبثاً يتذكر اسماً جديداً فردَّ عليهِ أحد السامعين بقوله : لجهنم ، فقال الخطيب : [انهُ لكذلك ! يعجبني ان يذكر كل انسان وطنه !]

على ان الفكاهة والمزاح والنكتة والنادرة والجواب المسكت والظرف والكياسة والبديهة وغيرها ليس شرطاً ان تكون وقفاً على الرجل المضحك او صاحب السخرة ! فقد تقع الفكاهة من رجل الجد او تحدث النكتة من صاحب الدين فتقع الموقع العذب وتنزل المحل الرفيع

ولقد ذكروا في كتب الأدب والتاريخ الطريف من فكاهات النبي[11] ومزاحاته. ولا بأس من ايراد احداها هنا : فقد جاءتهُ عجوز من نساء الانصار تسأله الدعاء لها بالمغفرة فقال لها : « أما علمت ان الجنَّة لا يدخلها العُجز » فصرخت فتبسم النبي وقال اما قرأت قوله تعالى (إنَّا أنشأناهنَّ انشاءً ، فجعلناهنَّ أبكاراً ، عُرباً أترابا) [12]

على ان النبي وحده لم ينفرد — مع وقاره وسمته — بالمزاحة الحلوة فقد كان عمر بن الخطاب ونعيمان الصحابي البدري ، وعبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق المشهور بابن أبي عتيق ممن يمزحون ، وكان أكثرهم مزاحاً الاخير على ورعه وعفافه وشرفه[13]

وتذكرنا هذه الظاهرة بمثلها في الادب الانكليزي . فالقس سدني سميث الانكليزي المعروف كانت تروى فكاهاته أكثر مما تروى خطبه، وتحفظ مزاحاته اكثر مما تحفظ مواعظه. وقد يحسن ان نذكر هنا احدى فكاهاته . فقد طابتهُ مرة احد أصدقائه قائلاً : أيها القس الجليل اذا وهب لي الله غلاماً أبله ناقص العقل فليس من حيلة أمامي الاَّ ان أخرجهُ قسيساً . فردَّ عليهِ القس سميث قائلاً : أرى يا صاحبي أنك خرجت في الحياة على خلاف رأي والدك

والمتتبع لكتب الادب يرى ان الذين تحدثوا عن النوادر والمزاحات والفكاهات قد قسَّموها طوائف تبعاً لأصحابها . فللقضاة نوادر، وللنحاة نوادر ، وللمتنبئين نوادر. ومثل ذلك للمغفلين والنبيذيين والنساء والجواري والعميان والسؤَّال وأصحاب المجون والمعاتبة[14]

---

(١١) نهاية الارب ج ٤ ص ٣ . والمستطرف للابشيهي ج ٢ ص ٢٣١ طبع مطبعة المعاهد «الطبعة الثانية» وعيون الاخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٣١٥ (١٢) كتب الادب (١٣) نهاية الارب ج ٤ ص ٥
(١٤) نهاية الارب والمستطرف

وأغلب الظن عندي ان هذه النوادر قد تزيّد الناس فيها . وأكثروا منها وبالغوا فيها على حسب عادتهم ، وكثير من تلك النوادر يظهر فيه أثر الصنعة وتلوح عليه عوارض الكلفة كما فعل الجاحظ في نوادره عن المعلمين فقد صورهم بسورة تتفق مع رأيه فيهم — ورأيه فيهم غير محمود — وتزيّد الحديث عنهم حتى بان أثر تكلفه وتعنته

وتجد الصنعة بادية ظاهرة في نوادر النحاة ، وكثير من فكاهات النحويين لم يصح وقوعها ، ولكن بعض أصحاب النحو او بعض أعدائهم وضعوها عليهم ، ونسبوها اليهم إما لأن تكون مادة للظرف ، وإما للتشنيع على النحاة والمعابثة بهم . وأغلب هذه النوادر يدور حول الإعراب ، والمصروف وغير المصروف . وقصة « هارون لاينصرف » معروفة فلا داعي لذكرها (١٥)

وقد يتبين للقارىء أو الأديب الفطن اذا كانت الفكاهة التي يقرؤها موضوعة ام مطبوعة. وليس لذلك من علامات الا الذوق السليم والفطرة الصحيحة ، والبصيرة النافذة . فنادرة عدي بن ارطأة مع شريح القاضي فيها كثير من الصناعة . وهي نوع من الأحجية المكتة التي كان يتندر بها الناس زمناً . فقد رووا أن عديًا أتى شريحاً القاضي ومعهُ امرأة له من الكوفة يخاصمها اليه . فلما جلس عدي بين يدي شريح قال عدي : أين أنت ؟ قال بينك وبين الحائط ، قال أني امرؤ من أهل الشام . قال بعيد الدار ، قال : واني قدمت العراق ، قال : خير مقدم ، قال : وتزوجت هذه المرأة قال : بالرفاء والبنين ، قال : وأنها ولدت غلاماً ، قال : ليهنك الفارس ، قال : وقد أردت أن أنقلها الى داري ، قال : المرء أحق بأهله ، قال : كنت شرطت لها دارها ، قال : الشرط أملك ، قال اقض بيننا ، قال : قد قضيت . قال : فعلى من قضيت ؟ قال : على ابن اخيك

ومثل ذلك ما روى عن الشعبي القاضي فقد لوحظ عليه ميله الى النساء في مجالس الخصومة فوُضعت له في ذلك النوادر

ولقد أُحكم واضعو هذه النوادر والمزاحات سردها وزمنها ، فلكل خليفة قاضٍ ، ولكل قاض نادرة ، فالشعبي قاضٍ على عهد عبد الملك بن مروان ، وإياس بن معاوية قاضي البصرة لعمر بن عبد العزيز ، وابو يوسف تلميذ الامام أبي حنيفة قاضي الرشيد وكذلك الاوزاعي ، والسكوني قاضي الخليفة المعتمد . وما منهم الا له نادرة طريفة أو حكاية لطيفة

ولقد اعترف الجاحظ عن نفسه(١٦) بأنهُ الف كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل ثم رجع عن ذلك وعزم على تقطيع الكتاب ولكنهُ دخل يوماً مدينة فلقي فيها معلماً

(١٥) نهاية الارب ج ٤ (١٦) عن المستطرف الابشيهي ج ٢ ص ٢٤٢

حسن المجتة فحدثه حتى بان للجاحظ عوار كلامه وفساد عقله فقال له بنص عبارته [يا هذا أبي كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن فقد قويت عزمي على ابقائه وأول ما أبدأ بك ان شاء الله تعالى]

ولقد لفتت هذه النوادر الموضوعة عن المعلمين والمنسوبة الى الجاحظ نظر العالم المستشرق الغيور الذكر « آدم متز » Adam Mez صاحب كتاب الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري فعلق عليها بقوله [أما مقدار تأثر الجاحظ فيما كتبه من السخرية بالمعلمين بكتب اليونان الهزلية التي كانت شخصية المعلم من أكبر صورها فهو موضوع للبحث] (١٧)

وهناك من الفكاهات والنوادر ما قصد به اللعب بالالفاظ ، فتخلق الحادثة ، وتصنع القصة أو النادرة من أجل كلمة او لفظة يقصد العبث بها . ومن ذلك ما يقولون أن اعرابيًا سرق غاشية على سرج ثم دخل المسجد يصلي فقرأ الامام قوله تعالى (هل أتاك حديث الغاشية) فقال السارق يا فقيه لا تدخل في التفضول . فلما قرأ الامام قوله تعالى (وجوه يومئذ خاشعة) قال السارق . خذوا غاشيتكم ولا يخشع وجهي لا بارك الله لكم فيها ثم رماها من يده وخرج . (١٨) ومن هذا الباب مايحكون أن اعرابيًا اسمه موسى سرق صرة فيها دراهم ثم دخل المسجد فقرأ الامام بعد الفاتحة قوله تعالى (وما تلك بيمينك يا موسى) فقال الاعرابي والله أنك لساحر ، رمى الصرة وخرج (١٩)

ونظرة عجلى الى النادرتين تريك كيف كان الرضع فيهما ، فهما يشتركان في المعرفة وفي دخول المسجد وفي قراءة الامام آيات من القرآن الكريم تناسب الاسم الذي تتم به الرواية

وأمثال هذه الفكاهات والنوادر شائعة في الأدب العربي تجدها في كتب الأبشيهي والبيهقي والشريشي والقليوبي وابن قتيبة وابن البلقطني والاتليدي والأسنهاني والحصري القيرواني صاحب زهر الآداب وكمال الدين الحلبي والنواجي والثعالبي والنويري والجاحظ والعاملي صاحب الكشكول والمخلاة وغيرهم

وقد جمع الآب لويس شيخو اليسوعي طائفة كثيرة من هذه النوادر ووضعها تحت اسم (الفكاهات) في المجموعة النفيسة التي أسماها « مجاني الادب في حدائق العرب » (٢٠)

وقد وضع العرب للفكاهة شروطاً ، وجعلوا للعطايات والمداعبات وما انخرط في سلكها من المزح وأنواع أصولاً لا يخرج فيها عنها وفصولاً لا يخرج بها منها ، وقبلوا الفكاهة

(١٧) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ١ ص ٣٩٣.
(١٨) المستطرف ج ٢ ص ٢٣٤ (١٩) العقد السابق (٢٠) مجاني الادب ج ١ ص ٨٩ ، ج ٢ ص ٢٠٣ ، ٣٠٣ ص ٢٢٥ ، ج ٤ ص ٢٤٤ ، ج ٥ ص ١٢٦ الطبعة العاشرة بيروت

الباردة المنتجة كما استحسنوا الحارة المنضجة لأن افراط البرد يعود به الى الجمد (٢١)

وقالوا إن النادرة اذا وقعت فاترة خرجت عن رتبة الهزل والجد ودرجة الحر والبرد فيكون بها جهد الكرب على القلب وقد صدقوا في هذا فانه لا وسط في الفكاهات كما لا وسط في الغناء ، وما أبدع ابن الرومي حين عجا احمد بن طيفور الشاعر المغني بقوله

فقدتك يا ابن ابي طاهر وأطعمت فقدك من شاعر (٢٢)
فلست بلحن ولا بارد وما بين ذين سوى النار
وأنت كذاك تغني النفو س أغنية النار المحتار

وأحسن ما قرأت في باب شروط الفكاهة والنادرة ما ذكره ابو اسحق بن علي الحصري القيرواني في كتابه « جمع الجواهر » الذي جعله ذيلاً لكتابه النفيس « زهر الآداب » فقد جعل من شروط النادر ان يكون (خفيف الاشارة ، لطيف العبارة) . وهذا حق لأن الفكاهة لا تحتاج الى الطول قدر ما تحتاج الى القصر ولا تملح بالتفسير قدر ما تملح بالرمز ولا تحسن نكتتها مثل ما تحسن بعبارتها

وجعل من بقية الشروط ان يكون (ظريفاً رشيقاً لبقاً رفيقاً غير فدم ولا ثقيل ولا عنيف ولا جهول قد لبس لكل حالة لباسها وركب لكل آلة أفراسها فطبى المقابل وأصاب الشواكل وكان يراقب حلاوته ويواثق طلاوته يضع الهناء مواضع النقب وينصرف كيف يجرح عما يدخل فيه اذا خاف ان لا يستحسن ما يأتيه) وضرب على ذلك المثل بما جرى لابن خاقان مع الخليفة المتوكل فقد ذكروا ان ابن خاقان خرج مع المتوكل للصيد فرمى الخليفة عصفوراً فأخطأه . فقال ابن خاقان : أحسنت يا أمير المؤمنين فنظر اليه المتوكل نظرة منكرة (لأن عدم اصابة الطائر ليست موضعاً للاحسان) فقال ابن خاقان : أحسنت الى الطائر حتى سلم فضحك المتوكل

وعلى ذكر المتوكل نقول انه اول خليفة اسلامي اهتم بالفكاهة والمزاح الى حد كبير ، وزاد فيها على يزيد بن عبد الملك الأموي والمنصور والرشيد العباسيين ، وقد ظهرت في عهد المتوكل شخصية فكاهية لمضحك اسمه « ابو العبر » ويعد أبو العبر هذا من زعماء الفكاهة والأدب العربي ولقد زاد فيها على « أبي دلامة » و« أشعب » . وكان « ابو العبر » هذا يُصنع به من الخليفة ما لا يصنع بالبهائم فيحتمله بصبر عجيب . قالوا ان المتوكل اذا طرب « أمر بأبي العبر » « أن يرمى به في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير فاذا علا في الهواء

(٢١) جمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري القيرواني ص ٦ (٢٢) المعجم السابق وديوان ابن الرومي طبع كامل كيلاني ص ١٠٢

صاح :— الطريق ! الطريق ثم يقع في الماء فيخرجه الساحون[٢٣]

وكان المتوكل يطرب ويرتاح للفكاهات والمزاحات تحدث في مجلسه وكان يبلغ به الضحك مبلغاً يتحمس معه الاشراف رجليه[٢٤] وحادثته مع البحتري الشاعر مشهورة في القصة البحترية التي مطلعها :

من أي ثغر تبتسم وبأي طرف تحتكم

فقد عارضها في مجلس المتوكل « المضحك » أبو العنبس الصيمري بأبيات تنطوي على الفحش الموجع فغضب البحتري وضحك المتوكل ضحكاً شديداً

وكانت لأبي العبر طريقة خاصة في الفكاهة وهي تعمُّد المقلوب من الكلام مجانة ورقاعة ويشاركه في هذه الطريقة ماجنٌ آخر اسمه محمد بن حكيم الكتجي . فهو يقول مثلاً « اما قبل فاحكم بنيانك على الرمل واحبس الماء في الهواء حتى يفرق الناس من العطش »[٢٥]

ويتحدث أبو العبر عن طريقته للقلوبة وكيف تعلمها فيقول (كنا نختلف ونحن أحداث الى رجل يعلمنا الهزل فكان يقول : اول ما تريدون قلب الاشياء فكنا نقول له اذا أصبح كيف أمسيت ؟ واذا أمسى كيف أصبحت ؟ واذا قال تعال تأخر الى خلف وكانت له ارزاق نعمل كتابتها في كل سنة ، فعمل مرة وأنا معه الكتاب فلما فرغ من التوقيع وبقي الختم قال : أتربهُ (اي جففهُ بالتراب) وجئني به فضيت فصببت عليه الماء فبطل ، فقال ويحك ما صنعت ؟ قلت : ما نحن فيه طول النهار من قلب الاشياء ! قال والله لا تصحبني بعد اليوم فأنت أستاذ الاستاذين)

هذه القصة التي يرويها أبو العبر عن نفسه وشهادة معلمه له بأنهُ اياذ الاستاذين تدلنا على مكانته في قلب الكلام وقلب الاشياء ، وليس في ذلك كثير من الذكاء او الحذق الذي تتطلبهُ الفكاهة او النادرة ولكنهُ على كل حال كان ميزة امتاز بها هذا المضحك المجان ، ولقد كان المتوكل يعجب به أيما إعجاب ويصله بأحسن الصلات

ومن غريب أمر هذا الفاكه انهُ لم يكن من عامة الشعب ، ولا من سواد الرعية ولكنهُ كان أميراً من أمراء العباسيين ، عاش جادّاً مقتبل حياته ومستهلّ عمره ثم رأى ان الجد أقصاه من الخلفاء ، فاتخذ المضحكة صناعة له لولا انهُ مني بمنافسين أشداء كأبي تمام والبحتري فصرف عن الشعر راحلته واتخذ الفكاهة صناعته ، الا انهُ تفكه بمهاقاته ، وتندر بسخافاته ولم يؤثر عنه ما يدل على حضور ذهن او توقد قريحة ، ولكن عرف عنهُ دائماً ما يدل على

(٢٣) تاريخ التمدن الاسلامي ٥ ص ١٤٥ (٢٤) كتب التاريخ والادب (٢٥) جمع الجواهر ص ٦٦

تنازله عن كرامته وتهاونه في حق انسانيته . وكانت مضحكات أفعاله ومكاهات أعماله أكثر طرافة وامتاعاً من مضحكات أقواله

***

ولعلّ أبا دُلامة أحق من غيره بالمكان الذي احتله بين الفاكهين والمضحكين . ويمتاز على أبي العيبر وغيره بأصالة الروح الفكاهية فيه، فهو لا يجنح الى التوريح والتعمل وتقلوب الكلام ليجعل لفكاهاته قيمة ، ولكن الفكاهة تأتيه عفواً من غير تكلف وتجيء اليه طوعاً من غير تعسف . ولقد استفاضت كتب الادب بذكر نوادره واختصّ الاصفهاني بدراسة طويلة في كتاب الأغاني (٢٦)

وقد اختصّ المنصور العباسي بالتقريب والكرامة ، وأعفاه مما كان يقيد به الشعب ، فأعفاه من لبس السواد والقلانس ليتلطفه في طلب الاعفاء من هذا الزي الذي أمر المنصور أصحابه باتخاذه (٢٧)

وكان يحلو لأبي جعفر المنصور ، وقيل لأبي العباس السفاح العبث بأبي دلامة فيسأل عنه في كل مكان يُظنّ أنه فيه ويؤتى به اليه فاكهه (٢٨) . وبلغ عند المهدي مبلغاً عظيماً فكان يستطيب حديثه ويصله . ولقد كان من حديثه معه أنه لما قدم المهدي من مدينة الري دخل عليه أبو دلامة فأنشأ يقول :—

اني نذرت لئن رأيتك سالماً بقري العراق وأنت ذو وفر
لتصلينّ على النبي محمد ولتملأنّ دراهماً حجري

فقال المهدي : صلى الله على النبي وسلم ؟ وأما الدراهم فلا . فقال ابو دلامة : أنت أكرم من ان تفرّق بينهما ثم تختار أسهلهما ، فأمر بأن يملأ حجره دراهم

وكتب مرة الى المهدي أبياتاً يقول في مطلعها :—

أدعوك بالرحم التي هي جمّعت في القرب بين قريبنا والأبعد

فلما قرأها المهدي قال : أي قرابة بيني وبينك ؟ قال : رَحِمُ آدم وحوله . . . أنسيتهما يا أمير المؤمنين ؟ ! فضحك وقال : لا والله ما نسيتهما وعجل له ما طلب وزاد فيه

وخرج مرة مع أبي مسلم الخراساني في بعض حروبه مع بني أمية ، فلما رجل الى البراز فقال له ابو مسلم انزل اليه ، فأنشأ يقول :—

(٢٦) الاغاني جـ ١٠ ص ٢٣٥ طبعة دار الكتب (٢٧) الاغاني جـ ١٠ ص ٢٣٦
(٢٨) الاغاني جـ ١٠ ص ٢٤٨

ألا لا تلمني أن فررت فاني أخاف على مخارقي ان تحطما
فلو أني في السوق أبتاع مثلها وجدك ما بالت ان أتقدما

فضحك أبو مسلم وأعفاه

***

كانت ناحية الفكاهة في « أبي العبر تقوم على قلب الالفاظ والاشياء والخلط والهذيان ، وكانت ناحية « أبي دلامة » تقوم على خفة الروح التي كثيراً ما كان يستخفها الطرب والشراب وهناك شخصية ثالثة قامت الفكاهة فيها على الطمع والجشع والفضول والشراهة في الأكل ، وهي شخصية أشعب

ولقد جاء ذكره وكثير من اخباره ونوادره وطرفه وفكاهاته في كتب الجاحظ وابن عبد ربه والخطيب البغدادي وبديع الزمان . وأتيح للكاتب المسرحي المعاصر الأستاذ توفيق الحكيم ان يقرأ هذه الطرائف والفكاهات في كتب هؤلاء الاعلام وان يخرج من ذلك كتاباً طريفاً اسمه « تاريخ حياة مدة »

ولقد أحسن الحكيم في عرض هذه الالوان الشهية من الأدب عرضاً مسرحياً طريفاً فقد كانت كما يقول مبعثرة[٢٩] على غير نظام حتى جاءها هو فلأ يده مما تخير من أطايبها وذهب بها الى « مطبخ » فني حيث مزجها وخلطها وجعل منها عجينة واحدة

والحق ان أشعب خفيف الظل في نوادره وقد وصفه الخطيب البغدادي بقوله (وله نوادر مأثورة وأخبار مستطرفة) [٣٠]

***

قلنا ان الفكاهة والدعابة ليست وقفاً على طائفة من الناس دون طائفة ولا خاصة بفريق منهم دون فريق . ولقد كان النبي يمزح ولا يقول الا حقاً [٣١] . وكان ابن الخطاب يمزح وكان الخلفاء يمازحون ويداعبون كما كان كثير من فلاسفة المسلمين وحكمائهم يميل الى الفكاهة ويجنح الى الدعابة . فان اسحق بن حنين العبادي المشهور بالنقل ومعرفة اللغات في زمن المعتضد العباسي كان فيه ميل الى الفكاهة وكان يرد دعابة الوزير القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد [٣٢] . وكان ابن بطلان البغدادي الطبيب معاصراً لعلي بن رضوان الطبيب المصري

(٢٩) تاريخ حياة مدة لتوفيق الحكيم من مقدمة الكتاب (٣٠) تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣٧
(٣١) من كتب الحديث والسيرة (٣٢) عيون الانباء لابن ابي أصيبعة ج ١ ص ٢٠١

في عهد المستنصر بالله الفاطمي وجرت بين الاثنين نوادر لطيفة أشار اليها ابن ابي أصيبعة في كتابه (٣٣)

وكان أبو الفرج بن هندو الحكيم والطبيب والشاعر الذي ترجم له الثعالبي في يتيمة الدهر — كان مفاكهاً خفيف الظل

***

ومن الحكماء الذين اشتهروا بالفكاهة وسرعة البديهة الطبيب اسحق بن سليمان الاسرائيلي المشهور بالمصري . قدم بعد رجوعه من مصر على زيادة الله بن الاغلب . وندعه هنا يروي قصة دخوله عليه بنفسه [فأدخلت اليه ساعة وصولي فسلمت بالامرة ، وفعلت ما يجب ان يفعل للملوك من التمهيد ، فرأيت عجنسه قليل الوقار والغالب عليه حب المزح وكل ما حرك الضحك فابتدأني بالكلام ابن خنيش المعروف باليوناني فقال لي : تقول ان الملوحة تحلو . قلت نعم . قال : وتقول ان الحلاوة تحلو قلت : نعم قال لي فالحلاوة هي الملوحة والملوحة هي الحلاوة . فقلت ان الحلاوة تحلو بلطف وملاءمة ، والملوحة تحلو بمنف فتعدى على المكابرة وأحب المغالطة ، فلما رأيت ذلك قلت له تقول : أنت حي قال نعم قلت والكلب حي ، قال : نعم قلت فأنت الكلب والكلب أنت ، فضحك زيادة الله ضحكاً شديداً فعلمت أن رغبته في الهزل أكثر من رغبته في الجد]

***

ولقد كان من شعراء العربية من عرف بالفكاهة واشتهر بالمزاح والنادرة كالحكم بن عبدل ، والدارمي وبشار بن برد والدلال وأبو العنبس الصيمري وغيرهم . كما وجد من المؤلفين الفكاهيين من وضع كتباً خاصة في الفكاهات والمعابثات كنوادر (٣٥) أبي العنبس ونوادر أبي العبر ، ونوادر العلمان للمداوي ، وكتاب الملح للكتتجي ، وكتاب النوادر والمضاحك لجراب الدولة أحمد بن علوجة السجزي . وكتاب النوادر والمضاحك للبرمكي . وهي كتب نقرأ اسماءها في الفهرست لابن النديم ولم نر منها شيئاً ، ولعلها مما ضاع من تراث العرب وصار عفياً تذروه الرياح

(٣٣) عيون الانباء لابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ (٣٤) عيون الانباء ج ٢ ص ٣٧
(٣٥) الفهرست لابن النديم ص ٢١٦ طبعة مصطفى محمد